

دراسة نظرية في النحو و الإعراب

Sriwahyuningsih R Saleh

E-Mail: sriwahyuningsih@umgo.ac.id

Sastra Arab, Fakultas Ilmu Budaya – UM Go

تجريد البحث

هذا البحث يتكلم عن دراسة نظرية في النحو و الإعراب. الأهداف من إجراءات هذا البحث هي: (١) أن يعرف الباحثة أو القارئ عن نظرية النحو و الإعراب. منهج البحث الذي يستخدم الباحثة في هذا البحث هو بحثاً نوعياً وصفيّاً، و الأسلوب المستخدمة في جمع المواد عند الكاتب هي الطريقة المكتبية، و أما مصادر المواد المبحوثة المستخدمة في هذا البحث نوعان من المصادر و هما مصدر المواد الأولية و مصدر المواد الثانوية. العلاقة بين القرآن و الإعراب علاقة وثيقة تتضح في كثير من المظاهر، فلقد كان معظم القراء من النحاة، و كان كل منهم يقعد لقراءته، و كان نقد القرآن-على يد أبي الأسود- إعراباً، و ليس ببعيد عنا الكتب التي ألفت خالصة في إعراب القرآن، بل إن اللحن في قراءة القرآن-إعراباً- هو الذي دعا إلى نشأة النحو. و آيات القرآن يستشهد بها في كل أبواب النحو و عند كل النحاة تقريباً. و كل كتب التفاسير تتعرض للإعراب في الكلمات و الجمل، حيث إنه مرتبط بالمعنى. هذا إلى أن العلوم الإنسانية بعامة يتصل بعضها من بعض.

كلمة رئيسية: نظرية، النحو، الإعراب

أ. المقدمة

الإعراب بكسر الهمزة مصدر من الفعل أَعْرَبَ يُعْرِبُ إِعْرَاباً، وهو بمعنى البيان والإيضاح والإفصاح. قال الأزهري: الإعراب و التعريب معناهما واحد، وهو الإبانة. يقال: أعرب عنه لسانه و عَرَّبَ أي أبان وأفصح. ويقال: أعرب عما في ضميرك أي أين. ومن هذا يقال للرجل إذا أفصح في

الكلام: قد أعرب ١" و في الأجرمية : الإعراب هو تغيير أواخر الكلم، لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظاً أو تقديراً. و أقسامه أربعة: رفع، و نصب، و خفض، و جزم. ٢

الإعراب في اللغة : مصدر قياسي من قولك : أعربت إعراباً . والمراد به : الإظهار والإبانة فنقول " أعربت عما في نفسي" أي أظهرته وأبنته .وفي الحديث الشريف : "الثيب يُعرب عنها لسانها والبكر تستأمر و في نفسها" والمراد : يظهره ويبين عنها لسانها. كذلك ورد في القاموس المحيط : الإعراب الإبانة و الإفصاح عن شيء... والإعراب أن لا يلحن في الكلام. ٣

والإعراب في اصطلاح النحاة هو تغيير يلحق آخر الكلمة حقيقة أو حكماً بسبب اختلاف العوامل الداخلة عليها من عامل يقتضي الرفع إلى آخر يقتضي النصب إلى ثالث يقتضي الجر إلى رابع يقتضي الجزم. ٤. فنقول أن الإعراب هو تغير أواخر الحركة أو الحروف في الكلمة سبب اختلاف العوامل الداخلة عليها إما أن تكون لفظاً أو تقديراً. استعمل النحاة كلمة (الإعراب) في ثلاثة معان اصطلاحية ، وهي: ١. ما يرادف النحو ٢. تحليل الكلام نحوياً ٣. ما يقابل البناء.

قال: نحا الشيء ينحاه و ينحوه إذا حرفه، و منه سمي النحوي لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب، و نحو العربية إنما هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من اعراب و غيره، كالتثنية و الجمع و التحقير و التكبير و الإضافة و النسب. ٥

و قال: هو علم يعرف أحوال أواخر الكلام إعراباً و بناءً. ٦. علم النحو هو علم يعرف به كيفية التركيب العربي صحة وسقما، وكيفية ما يتعلق بالألفاظ من حيث وقوعها فيه. والغرض منه الاحتراز عن الخطأ في التأليف والاقتدار على فهمه والإفهام به.

١ ابن منظور، لسان العرب(، بيروت: دار صادر) ط١، ص٥٨٨

٢ ابي عبد الله محمد بن محمد بن داود، الأجرومية (الكويت، سنة ٢٠١٠م) ط ١، ص ٤٥

٣ محمد ابن يعقوب ، القاموس المحيط (بيروت : دار الفكر، ١٩٩٥م) ج ١، ص ١٠٣

٤ <http://vb.stop55.com/398066.html> (حملت في يوم الإثنين، تاريخ ٢٤ نوفمبر ٢٠١٤)

٥ محمد ابن يعقوب، القاموس المحيط(بيروت: دار الفكر سنة ١٩٩٥م) ج ١، ص ١٢٠٣

٦ ابراهيم مصطفى، المعجم الوسيط (استانبول) ج ٢، ص ٩٠٨

ب. البحوث

الفصل الأول : حقائق النحو

أ. تعريف النحو

تعريف النحو لغة، النحو : الطريق و الجهة و هو مشتق من الفعل نحا و الجمع أنحاء و نُحُو، و نحوت الشيء قصدته فالنحو : القصد، و منه نحو العربية، و هو إعراب الكلام العربي، لأن المتكلم ينحو به منهج كلام العرب إفراداً و تركيباً، و النحوي العالم بالنحو، و الجمع نحويون و نحاة.

قال ابن جنى أن النحو هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصريفه من إعراب و غيره، كالتثنية و الجمع، و التحقير و التكسير و الإضافة، و النسب، و التركيب، و غير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها و إن لم يكن منهم، و إن شد بعضهم عنها رد به إليها^٧. و الحقيقة أن ابن جنى قد سبق علماء عصره بهذا النص و جاء بما تعارف عليه اللغويون المحدثون، فقد جمع في هذا النص بين لوتين من الدراسات: صرفية و تنضح في التثنية و الجمع و التحقير (التصغير)...، و نحوية: تنضح في الإضافة و الإعراب و التركيب. و هذان النوعان من الدراسة و هما الصرف (Morphology) و التركيب (Synaxe) يكونان في الدراسات اللغوية الحديثة ما يسمى بعلم النحو (Grammar).

و لتفصيل ذلك أقول : إن الدراسات اللغوية الحديثة تجمع بين علم النظم و علم التراكيب (Synaxe)، و علم الصيغ الصرفية (Morphology) تحت باب واحد و هو باب النحو (Grammar)^٨:

١. فأما علم النظم أو التراكيب (Synaxe) فهو يعني أول كل شئٍ بترتيب الكلمات في

٧ ابن جنى ، الخصائص لابن جنى ، (المصرية: دار الكتب ، ١٩٠٢ م) ج ١ ، ص ٣٤.

٨ الدكتور كيال بشر، دراسات في علم اللغة، (مصر: دار المعارف ، ١٩٦٩ م). ص. ٢٨

4

جمل أي أنه يدرس الطرق التي تتألف بها الجمل من الكلمات ٩. و يهتم هذا العلم أيضاً بأشياء أخرى لا تقل أهمية عن تركيب الكلمات و تأليفها في الجمل، من هذه الأشياء البحث في قوانين المطابقة (Concord) أو عدم المطابقة من حيث العدد (الإفراد و التثنية و الجمع) من حيث النوع (التأنيث و التذكير) مثلاً. و من وظيفة علم التراكيب كذلك البحث في الإعراب و قوائمه ١٠.

٢. الشق الثاني من علم النحو و هو علم الصيغ (Morphology) و هو ما يعرف في الأوساط اللغوية بعامة بعلم الصرف، و يقوم بدراسات الوحدات الصرفية و الصيغ اللغوية ١١ التي يتركب منها الكلام أو الجمل. فهذا الشق الثاني (الوحدات الصرفية و الصيغ اللغوية) أساس الشق الأول – علم التراكيب- و مكوناته. و تؤكد الدراسات اللغوية الحديثة أن علم التراكيب هو أشبه ما يكون ببناء كبير، مادته الوحدات الصرفية أو تسمى المورفيمات ١٢.

و من هذين الفرعين معاً تنتج الفصائل النحوية (Grammatical Categories) كفصيلة العدد: المفرد و المثنى و الجمع، و فصيلة الجنس: المذكر و المؤنث، و فصيلة التعريف و التنكير: النكرة و أنواع المعارف و هي الضمير و العلم و أسماء الإشارة و الموصولة و المعرفة بال، و فصيلة الزمن: كماضي الفعل المضارعه و ظرف الزمان، و فصيلة الاشتقاق: كاسم الفاعل و المفعول و اسم الزمان و المكان و اسم الآلة و أفعال التفضيل و اسم المرة و اسم الهيئة و الصفة المشبهة و الصيغة المبالغة، و فصيلة التوابع كالصة و العطف و البدل و التوكيد، و فصيلة النعاني الوظيفية: كالفاعلية و المفعولية و الاضافة و الاستثناء و التمييز.

٩ الدكتور كيال بشر، دراسات في علم اللغة، ص ٢٤٥.

١٠ الدكتور كيال بشر، دراسات في علم اللغة، ص ٢٩

١١ دكتور عبده الرجيجي، فقه اللغة في الكتب العربية، (بيروت: دار النهضة العربية ١٩٧٢م) ص ٢٠

١٢ الدكتور كيال بشر، دراسات في علم اللغة، ص ٣٠

ب. نشأة النحو وتاريخه

١. أولية النحو

النحو نوعان: بَصْرِيٌّ، وَكُوفِيٌّ، وَالْبَصْرِيُّ أَسْبَقُ وَجُودًا مِنَ الْكُوفِيِّ، وَإِلَيْهِ يُرَدُّ وَضْعُ النُّحُو، مَا فِي ذَلِكَ خِلَافٌ وَلَا مِرَاءٌ، فَمَنْ حَقَّهُ عَلَيْنَا أَنْ نَبْدَأَ بِهِ، وَالْحَدِيثُ عَنْهُ ذُو شِقَاقَيْنِ: الْأَوَّلُ عَنْ بَيْتَةِ النُّحُو، وَالْآخِرُ عَنْ وَاضِعِهِ.

٢. بيئته

نشأ النحو في البصرة، وما كان له أن ينشأ في غيرها؛ فهي المدينة التي اشتدت فيها الحاجة إليه قبل غيرها، إذ لم تكد تُمَصَّرُ، ويتسامع الناس بها وبوفرة الخيرات فيها، حتى انثالت إليها أفواج من العرب، وأخرى من العجم.

وتوالت الهجرة إليها على تعاقبٍ وازدياد، حتى بلغت عددة مُقاتلتها أيامَ كان زياد والياً عليها — ثمانين ألفاً، وبلغت عددة عيالهم مائة وعشرين ألفاً، وكان تمصيرها سنة ١٤، وولاية زياد سنة ٤٥ فكل ما بينهما نحو ثلاثين عاماً.

وعاش أهل البصرة من العرب والعجم كما يعيش أهل الوطن الواحد من أصول مختلفة، تجمعهم أواصره، وتدعوهم دواعي العيش فيه إلى التفاهم والمعاملة، ولا يمكن أن يتم تفاهمهم، وتيسر معاملتهم إلا باللغة، فلم يكن بدُّ لهذه الأخطاط من اصطناع لغةٍ واحدة، إلى جانب لغاتها المتعددة؛ فكانت العربية هي هذه اللغة؛ لأنها لغة الدولة القائمة، ولسانها الرسمي، وهيئات أن تستطيع الجاليات الأجنبية إتقان الفصحى والتحدث بها، كما يتقنها ويتحدث بها العرب الخالص.

لذلك أصبحت العربية عربيتين: فصيحة يصطعنها العرب، وأخرى يشوبها قليل أو كثير من اللحن والتحريف، يتحدث بها المستعربون في الحياة العامة، على أن اللحن

والتحريف كانا يشوبان لغة العرب أو بعضهم أيضاً، ولكن بمقدار، وعلى تفاوت واختلاف.

فقد رَوُوا أَنَّ عَمْرَ - رضي الله عنه - جاءه كتاب من عامله على ميسان، وقد لَحَنَ كاتبه فيه، فكتب عمر إلى العامل: أَنْ قَنَعُ كَاتِبِكَ سَوْطًا ١٤.

وشيءٌ آخَرُ يُؤَيِّدُ ظهور النحو في البصرة، وهو: أَنَّ الإمامَ عَلِيًّا، وعبدالله بن عَبَّاسٍ، وأبا الأسود الدؤليَّ - كانوا يقيمون بالبصرة، سَبَقَ إليها أبو الأسود، وجاءها الإمام وابن عباس أيامَ الفتنَةِ الكبرى، ويتنازع الرواةُ نسبةَ وَضْعِ النحو إلى ثلاثتهم في كثير من الروايات، ومعقولٌ أَنْ يكونَ وَضْعُ النحو إِبَّانَ هذه الحقبَةِ: إذ كان خِلاطُ العرب والعجم حينئذٍ أَشَدَّ، واللحنُ في العربية أَكْثَرَ، والحاجةُ إلى النحو أَكْثَرَ.

٣. واضح النحو

وردت رواياتٌ شَتَّى عن واضح النحو، تتحدَّثُ عنه من جوانبه المختلفة، تتحدَّثُ عن سببِ وَضْعِهِ، وعن واضعِهِ، وعمَّا وَضِعَ منه أَوَّلَ الأمرِ، فأما سببُ وَضْعِهِ فَظُهُورُ اللَّحْنِ، واستفحالِ حَطَرِهِ على مَرِّ الأيامِ.

وكانت العربُ تَمُقَّتُ اللَّحْنَ أَشَدَّ المَقْتِ، وتراه مَنقَصَةً تُزِرِي بِصاحبِها، لا في مطلع الإسلامِ فَحَسْبُ؛ ولكن فيما تلاه كذلك إلى أَمَدٍ بعيدٍ، وكانوا لا يَسْكُتُونَ عن لَحْنَةٍ تَعْرِضُ؛ بل لا يُقْرُونَ على شَكِّ منها، لا في قولٍ يقال، ولا في نصٍّ يُروى.

وقد وردت رواياتٌ كثيرةٌ تعزو وَضْعَ النحو إلى أبي الأسود، بلا خلاف بينها، إلا في سببِ وَضْعِهِ والمُضِيِّ فيه: أكان إحساسًا بضرورته، أم كان إشارةً من عُمَرَ، أم من الإمامِ عليٍّ ١٥، أم من زياد؟

١٤ الجاحظ، البيان والتبيين، ط ٧، ج ٢ ص ٢١٧

١٥ www.alukah.net/literature (حملت في يوم الخميس، تاريخ ١٥ جنوري ٢٠١٥)

ويبدو أن الأمر شُبِّهَ على القائلين بإشارة عمر، وإشارة زياد، فَحَسِبَ الأولون أنَّ عَهْدَ عمر إلى أبي الأسود في تعليم الإعراب — يعني إشارة بوضع النحو، وَحَسِبَ الآخرون أنَّ نَقَطَ أبي الأسود للمصحف في عهد زياد هو الإشارة بوضعه، أمَّا القائلون بإشارة الإمام علي فلم يُبعدوا، لأنَّ أبا الأسود كان من أَحْصَى شِيعَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ؛ فَمَنْ الطَّبِيعِيُّ أن يكون على صلةٍ ما بنحو أبي الأسود، إشارةً به أو إرشادًا فيه.

ويُروى أن واضع النحو هو الإمام نفسه، وأن أبا الأسود أخذَه عنه، ولا يتعاطَمُ الإمام أن يضع النحو لو أرادَه، فعَبَقْرِيَّتُهُ لا خلافَ عليها؛ لكنَّ الأعباء التي كان يضطَّعُ بها أثقلُ من أن تُتَّيَّحَ له التفكيرَ في ذلك؛ إذ كان — كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ — مُوَزَّعَ الجُهدِ والفكر لتتَّيَّبِ دعائم الدولة، وإقامة أحكام الدين، وتدبير شؤون الرعيَّة، وإحباط

المكاييد. ١٦

وفي أخبار أبي الأسود شواهدُ تدلُّ على أنَّه كان — كما توسَّم فيه عُمر — صاحبَ حِسٍّ لُغَوِيٍّ مُرَهَفٍ، يستطيع به تمييز الأساليب بعضها من بعض، وإدراك ما يكون بينها من أوجهِ الخلاف والمشابهة، وما يكون لذلك من أثر في المعنى صحة وفسادًا.

ت. مشكلات النحو

هناك مشكلات كثيرة تحوُّل بين دراسة النحو وبين إتقانه، منها ما هو متعلق بالضعف العام في اللغة العربية في المجتمع العربي؛ بسبب اختلاف اللغة المنطوقة في حياة الناس العادية عن اللغة المكتوبة، واعتيادهم على اللغة المنطوقة، فَيَنْشَأُ "اللحن" في اللغة حين يريدون التحدث أو الكتابة بالعربية الفصيحة، ومنها ضعف مُدرِّسي اللغة العربية، وعدم تمكُّنهم من النحو العربي، ومن تمرير هذا العلم بالشكل الفعَّال إلى تلاميذهم، وذلك يَنْتِجُ أحيانًا من ممارسة وظيفة معلم اللغة العربية بهدف طلب الرزق، أكثر مما هو إرادة ومحبة في رفع مستوى هذه اللغة في واقع المجتمع العربي.

ونحن سنركّز على مشكلة رئيسية، نعتقد أنه إن تمت معالجتها بالشكل المطلوب، فسوف تظهر نتائج طيبة على مستوى إتقان النحو العربي نُطقًا وكتابةً عند الطلاب، وسوف نتبّع "جذور" تلك المشكلة تاريخيًا؛ كي نحاول تقديم العلاج المناسب لها – إن شاء الله. المشكلة الرئيسية تكمن في طريقة تدريس النحو العربي في المدارس، والتي تركّز أساسًا على إتقان الإعراب، واستظهار القواعد النحوية وحفظها غيبًا، وفي العودة إلى جذور المشكلة نجد أنفسنا أمام كمٍّ من الصعوبات المتعلقة بمادة النحو؛ من حيث هي إرث وصلنا منذ القدم.

"وتتمثّل مظاهر تلك الصعوبة في الجوانب التالية ١٧:

١. اعتماد النحاة في وضعهم لعلم النحو على منطق العقل (المعيارية)، دون الاهتمام بمنطق اللغة وطبيعتها (الوصفية)، وقد برز ذلك في طريقة التناول والتعبير في كثيرٍ من كتب النحو والصرف والبلاغة، ويُسْتثنى منها كتب قلة ظهرت في أول عهد العرب بهذه الدراسات؛ حيث قامت على الوصف في كثيرٍ من أبوابها، ولم تقع في المعيارية إلا من قبيل التوسّع في التعبير؛ أمثال: كتاب سيبويه "الكتاب"، وكتّابي عبدالقاهر الجرجاني "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، وبعد أن انتهى عصر الاستشهاد، استمرّ اللغويون في دراسة اللغة عن طريق ما وضعه السلف من قواعد اللغة، لا عن مادة اللغة، من هنا بدأ فرض القواعد على الأمثلة، وبدأ القول بالوجوب والإيجاز. أدّى كل ذلك إلى ظهور كثيرٍ من الحدود والقيود والافتراضات، التي تتنافى أحيانًا مع الواقع اللغوي؛ لذا فإن الاتجاه الحديث في تدريس اللغة، يقوم أولاً على الوصف؛ وصف اللغة المستعملة للتلاميذ، وهذا ما تدعو إليه كثير من المؤتمرات والندوات والدراسات العلمية في ذلك المجال.

٢. تأثر واضعي علم النحو بعلماء الكلام في أن كلَّ أثرٍ لا بدَّ له من مؤثِّر، والإمعان في ذلك إمعاناً انتهى إلى نظرية العامل، وإلى الحديث عن العِللِ وعِللِ العِللِ.
٣. كثرة ما في القواعد من أقوال ومماحكات، واختلاف مسألتها، واعتمادها على التحليل المنطقي، الذي يستدعي حصر الفكر لاستنباط الأحكام العامة من أمثلة كثيرة متنوعة؛ مما دعا علماء التربية أن ينادوا بتأخير دراسة القواعد إلى سنِّ المراهقة.
٤. جفاف النحو وصعوبته، وتأكيده على مماحكات عقلية مجردة بعيدة عن واقع الحياة العملية التي يعيشها التلاميذ، وهُمُّ التدقيق في الجمل والتراكيب اللغوية.
٥. كثرة العوامل النحوية، وتشعب التفاصيل التي تُندرج تحت هذه القواعد، وتزاحمها بصورة لا تُساعد على تثبيت المفاهيم في أذهان التلاميذ، بل إلى تشتيتها ونسيانها؛ وذلك لتجرُّدها وبعدها عن واقع الحياة التي يحيها التلاميذ."

الفصل الثاني : حقائق الإعراب

أ. تعريف الإعراب

جاء في اللسان ١٨ عدة معان لكلمة الإعراب، منها :

١. فالإعراب بمعنى الإيضاح أو الإفصاح و منه قول - صلى الله عليه و سلم- (الثيب تعرب عن نفسها- أي تفصح) و يقال : أعرب عما في ضميرك أي أبّن.
٢. أعرب الرجل: تزوج امرأة عربياً أو عربية و هي المرأة الضاحكة المتحبة إلى زوجها العاشقة له، المظهرة له ذلك، و بذلك فسّر قوله تعالى (عرباً أتراباً) (سورة الواقعة آية ٣٧)). و قيل للتوفيق بين المعنيين : أولاً و الثاني إن المعرب للكلام كأنه يتحجب إلى السامع بإعرابه كما تتودد المرأة العروب إلى زوجها ١٩ . و عندي أن المعنى الثاني

١٨ ابن منظور، لسان العرب، ط ١، ص ١٨١

١٩ ابن الأنباري، أسرار العربية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٨٨٦ م) ط ليدن، ص ٩

البحث في نشأة اللغة أمرا من الأمور الميتافيزيقية، و أنه من المستحسن الانصراف عن مثل تلك الأبحاث.

و ليس المجال هنا عرض آراء الفريقيين و ترجيح واحد منهما، ولكنني أشرت إليها لكي أنتقل إلى مسألة الإعراب، ذلك أنه إذا كان العلماء قد اختلفوا في نشأة اللغة، فإن نشأة الإعراب ربما تكون لها من الدلائل و البراهين ما يجعلنا نظن أنها اصطلاحية. و الدليل على ذلك أن اللغة عندما تعرب تكون قد وصلت إلى درجة الكمال، و يكون الإنسان الذي يتكلم بها قد وصل أيضاً إلى درجة الكمال العقلي و النمو الفكري، فكتابة لغة معربة أو النطق بلغة معربة يتطلب ذهنًا واعياً و عقلاً نامياً ليطابق بين المعاني التي في نفسه و بين الرموز التي على أواخر الكلمات المنطوق بها، تلك الرموز التي تدل على ما يريد إظهاره من معاني.

و لنفترض أن اللغة كانت في أول أمرها صيحات أو إشارات باليد أو مجرد أصوات تدل على الرغبات الشخصية للإنسان الأول... إلى آخر ما تقوله العلماء في هذا الصدد، ثم اكتسب الإنسان خبرة جعلته ينطق ببعض الأسماء لمسميات يعرفها و يشاهدها أمامه، ثم لمسميات يشعر بها و بعد ذلك وفق بين هذه الأسماء، فكانت الجمل. أليس معنى ذلك أن تكوين الجمل كان هو المرحلة الأخيرة في اللغة، و أنه كان نتيجة تطورات عديدة و خبرات مختلفة. فإذا كان الأمر كذلك فالإعراب ظاهرة تمثل قمة التطور اللغوي عند الإنسان، وليست صاحبة لنشأة اللغة، ذلك لأن الإعراب لا يجيء إلا مع الجمل. على أنه لم يجيء دفعة واحدة. و مثله في ذلك مثل أي علم أو مجال حضاري آخر، فالرياضة مثلاً كانت في أول الأمر مجرد عمليات مبسطة في الجمع و الطرح و الضرب، ثم بارتقاء العقل و استمرار هذا الارتقاء قطعت الرياضة أشواطاً بعيدة حتى وصلت إلى النظريات الرياضية المعقدة التي انبنت عليها كثير من مظاهر المدنية الحديثة. كذلك فإن أحكام الإعراب تكونت بالتدريج تبعاً للرقى الاجتماعي و الحضاري للأمم.

ثم كان من عمل النحاة أن نقحوا هذه الأحكام و القواعد، وهذبوها و صنفوها في أبواب، و زادوا عليها، و أضافوا ما أضافوه من تأويلات و تعليقات و حذف و عوض. و لا يقول إن هذه علوم لغوية، و تلك علوم رياضية، فكلاهما صورة للحضارة الإنسانية بوجه عام، تلك الحضارة التي اخترعها و يهيمن عليها العقل الإنساني، و التي تتناسب تناسباً طردياً مع رقي هذا العقل و تطوره.

ننتقل الآن إلى الحديث عن تطور ظاهرة الإعراب في اللغة العربية بشيء من التفصيل، و نقول إن الشعر الجاهلي هو أقدم نص عربي معرب فصيح، حتى إذا أخذنا بنظرية المرحوم الأستاذ الدكتور طه حسين في أن معظم هذا الشعر منحول موضوع، فإنه سوف يتبقى لنا بعض هذا الشعر، بعد ترك معظمه، ممثلاً للغة العربية بعد أن كمل نضجها، و استوى عودها. و هذا الشعر موزون و مقفر، و وزنه هذا، أو تفعيلاته العروضية تقوم صحتها و سلامتها على الإعراب من تنوين و حركة و سكون؛ إذ لا يمكن قراءة هذا الشعر دون كسر إذا أهملنا إعرابه. و بالطبع فإن هذه الصورة- صورة الشعر الجاهلي- لا بد أن تسبقها صوراً أخرى للغة ناقصة أو بدائية، و لا بد أيضاً أن تكون تلك الصورة هي آخر حلقة في سلسلة التطورات اللغوية متضمنة الرقي الإعرابي. و الشعر الجاهلي كما يرجح معظم العلماء يرجع تاريخه إلى مائة و خمسين سنة أو مائتي سنة قبل البعثة المحمدية، يقول الجاحظ: (أما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله و سهل الطريق إليه أمرؤ القيس بن حجر و مهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له- إلى أن جاء الله بالإسلام- خمسين و مائة عام، و إذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام) ٢٦

و إذن فلنرجع إلى الوراء ما أستطعنا حتى نتبين مظاهر الإعراب في اللغة التي سبقت الشعر الجاهلي. و نقطة البدء عندنا هي اللغة السامية الأم، و تبادر إلى القول بأننا نظن أن اللغة العربية هي اللغة السامية الأم نفسها، و ليس كما قال العلماء هي أقرب الساميات إلى

٢٦ ابن عثمان بن مجو الجاحظ، الحيوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٦٥ م) ط ٢، ج ١٠ ص ٧٤

اللغة السامية الأم. و نظن أيضاً أن باقي الساميات هي لهجات أو لغيات ناقصة النمو متفرعة عن اللغة العربية، و الدليل على ذلك ما يلي:

١. أول هذه الأدلة و هو أهمها أننا إذا افترضنا أن اللغة العربية هي أقرب الساميات شبهاً باللغة السامية الأم، فأين اللغة السامية الأم إذن؟ يقولون إنها اندثرت و لا نملك منها نصوصاً مكتوبة و لا مروية في كتابات آخرين^{٢٧}. و هذا شيء عجيب حقاً، فنحن لا نعرف هذه اللغة و لا نملك نصوصاً مكتوبة عنها، و لا نقوشاً، و لم يرو واحد من العلماء نصوصاً بهذه اللغة، ثم بعد ذلك نحكم بأنها كانت موجودة ثم اندثرت. كأننا نحكم على العدم بأنه كان موجوداً ثم أصبح عدماً.

هذه واحدة و أخرى أن هذه اللغة السامية الأم إن كانت قد اندثرت، فلم لم تندثر اللاتينية أيضاً أو السنسكريتية و كلاهما لغة أم انثقت عنها لغات أخرى، بل كلاهما يقاربان اللغة السامية الأم في القدم؟ فاللاتينية يرجع تاريخ مرحلتها الأولى إلى سنة ٧٥٣ ق.م عند إنشاء مدينة روما^{٢٨} و السنسكريتية ترجع نصوصها الأدبية التي نعرفها إلى غضون الألف الأول قبل الميلاد^{٢٩}.

٢. الإعراب الكامل في اللغة العربية: فإننا إذا اتبعنا منهج القارنة اللغوية اتضح لنا أن اللغات الأمهات (إذا جاز لنا هذا التعبير) كان تتميز بالإعراب، بالسنسكريتية، و اليونانية و اللاتينية—كما سبق أن أوضحنا—كان لغات معربة، من هذه اللغات الأمهات المعربة انثقت لغات أخرى غير معربة. فمن اللاتينية تفرعت الفرنسية و البرتغالية و الألمانية... و من السنسكريتية تفرعت اللغة الفارسية، و اللغات الهندية الحديثة، و من

٢٧ للدكتور صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٢ م) ط ٢، ص ٣٦

٢٨ للدكتور صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ط ٢، ص ٢٠٦

٢٩ الدكتور حسن ظاظا، اللسان و الإنسان (بيروت: دار سامية، ١٩٩٠ م) ط ٢، ص ٢٤٢

اليونانية تفرعت اللغات اليونانية الحديثة^{٣٠}. فما المانع أن تكون اللغة العربية هي الأصل الذي تفرع عنه باقي الساميات غير المعربات؟

٣. يقرر العلماء أيضاً أن جميع ما تتميز به اللغة السامية الأم موجود في اللغة العربية و أن كل لغة سامية أخرى تحوى عنصراً أو عشرين أو عناصر من الخصائص العامة للغة السامية الأم^{٣١}. أليس من الممكن تأدية هذا المعنى بألفاظ أخرى فنقول: إن العربية بها من الخصائص اللغوية ما ليس موجوداً في باقي الساميات، بينما أي خصيصة في لغة سامية أخرى موجودة في اللغة العربية، أي أن اللغة العربية جامعة لكل خصائص الساميات. فما المانع أن تكون هي الأم التي انبثقت عنها باقي الساميات.

٤. يكاد يجمع العلماء على أن الموطن الأول للساميين كان القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية (بلاد الحجاز و نجد و اليمن و ما إلى ذلك)^{٣٢} و من هذا المهد تفرعت الهجرات السامية إلى العراق و الشام و ما جوارهما. و يأتي العلماء بالأدلة المقنعة بصدق هذا الرأي^{٣٣}

ت. أهمية الإعراب

لا يخفى على كل طالب علم ما لإعراب القرآن الكريم من فوائد تتجلى في ضبط الكلمات وفي معرفة معاني الآيات، لأن الإعراب يُميز المعاني^{٣٤}. قال الإمام مكي بن أبي طالب "أعظم ما يجب على الطالب لعلوم القرآن: الراغب في تجويد ألفاظه، وفهم معانيه، ومعرفة قراءاته ولغاته، وأفضل ما القارئ إليه مُحْتَاج: معرفة إعرابه، والوقوف على تصرف حركاته، وسواكنه؛ ليكون بذلك سالماً من اللحن فيه، مستعيناً على أحكام اللفظ به، مُطلعاً على المعاني

٣٠ علي عبد الواحد وافي، علم اللغة (طبعة النهضة المصرية، ١٩٤٤ م) ص ١١٥

٣١ دكتور عبده الرجيجي، فقه اللغة في الكتب العربية، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢م)، ص ١٢ و ما بعدها

٣٢ دكتور عبده الرجيجي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص ٨

٣٣ الدكتور علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ط ٣، ص ٩ و ما بعدها.

٣٤ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين، شُعب الإيمان في قراءة القرآن بالتفخيم والإعراب، ج ٢ ص ٤٢٦-٤٣٠

التي قد تختلف باختلاف الحركات، متفهماً لما أراد الله به من عبادة، إذ بمعرفة حقائق الإعراب تعرف أكثر المعاني، وينجلي الإشكال، فتظهر الفوائد ويُفهم الخطاب، وتصح معرفة حقيقة المراد." ٣٥.

ج. الخلاصة

إن والإعراب في اصطلاح النحاة هو تغيير يلحق آخر الكلمة حقيقة أو حكماً بسبب اختلاف العوامل الداخلة عليها من عامل يقتضي الرفع إلى آخر يقتضي النصب إلى ثالث يقتضي الجر إلى رابع يقتضي الجزم. أما النحو فهو انتحاء سمت كلام العرب، في تصريفه من إعراب وغيره، كالتثنية و الجمع، و التحقير و التكسير و الإضافة، و النسب، و التركيب، و غير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها و إن لم يكن منهم، و إن شد بعضهم عنها رد به إليها

مراجع

- ابن منظور، لسان العرب (، بيروت: دار صادر)
ابي عبد الله محمد بن محمد بن داود، الأجرومية (الكويت، سنة ٢٠١٠م) ط ١
محمد ابن يعقوب ، القاموس المحيط (بيروت : دار الفكر، ١٩٩٥م) ج ١
ابراهيم مصطفى ، المعجم الوسيط (استانبول) ج ٢
ابن جنى ، الخصائص لابن جنى ، (المصرية: دار الكتب ، ١٩٠٢ م) ج ١
الدكتور كيال بشر، دراسات في علم اللغة، (مصر: دار المعارف ، ١٩٦٩م).
دكتور عبده الرجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، (بيروت: دار النهضة العربية ، ١٩٧٢م)
الجاحظ، البيان والتبيين، (مصر: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٨) ط ٧، ج ٢
ابن الأنباري، أسرار العربية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٨٨٦ م) ط ليدن
الأستاذ عباس حسن، النحو الوافي (بمصر : دار المعارف، سنة ١٩٦٠م) ج ١
ابن هاشم الأنصري، شرح شذور الذهب، (التجارية الكبرى)
ابن مالك ، حاشية الصيان على شرح الألفية ابن مالك، (التجارية الكبرى) ج ١
ابن عثمان بن مجو الجاحظ الحيوان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٦٥ م) ط ٢
للدكتور صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٢ م) ط ٢، ص ٣٦